حقيقة «وثيقة تبرئة اليهود»

بقلم الاب اغناطيوس عبده خليفه اليسوعي
المستشار اللاهوتي لغبطة البطريرك الماروني
والخبير في المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني

— ١ —

توطئـــة

كلمة الكنيسة كلمة حق . فهي ان ضايقت شواعرنا فلاننا لا ننظر اليها نظرة الكنيسة نفسها . وبالتالي فان هذه المؤسسة الالهية التي اعطاها — ولها وحدها — السيد المسيح مكوّنها السلطان لتأويل كلامه واعماله حياة للبشرية ، لا يسوغ لانسان مهما علا مقامه ان يكتّها او ان يصلح ما قالته ، والروح القدس دوماً يسير خطواتها نحو الغاية الوحيدة : خلاص البشرية واعطاؤها السنن القويمة لانارة الطريق . فلا السياسة شاغلها ولا الدول تحتل مركزاً في اهتمامها الا بمقدار ما في ذلك من خدمة للانسان ومن تتميم حياته ومساعدته على الانفلات من ربقة المادة الى عالم الروح . فالسياسات تضمحل والدول تنقضي والكنيسة باقية صامدة امام الاعاصير والاضطهادات . فهي هي في حياتها تفتش على مر العصور عن الطريقة المثلى لايصال البشارة الروحية الى من افتداهم الاله الانسان بدمه الذكي غير آبهة في ذلك لما ينجم عن عملها من صعوبات وعراقيل .

تاريخ « الوثيقة »

سنة ١٩٦٢ في آخر اول جلسة المجمع المسكوني عرضت على الآبـاء مسودة « الوثيقة » هذا عنوانها : « اليهود » . فلم تكن تتكلم الا على القرابة الروحية القائمة بين اليهود والمسيحيين من خلال الوحي الكتابي في العهدين القديم والجديد ، وكأني بالعهد القديم التربة التي منها نبت العهد الجديد ليكمل لا لينقض ، او قل التربة التي فيها تتأصل جذور العهد الجديد .

وقد زادت « الوثيقة » على ذلك ان اليهود كشعب، وان قام عدد منهم وقتلوا المسيح، ليسوا هم المجرمين السفاكي الدماء. ان المسيح مات فداء عن خطيئة العالم وهو الذي دلّ عليه يوحنا بقوله: « هوذا حمل الله الذي يحمل خطيئة العالم » — والدم الذي سفكه هو لخلاص البشرية جمعاء التي قتلته بخطيئتها وباهانتها الله — وقد تمثل الاجرام تاريخياً بما صنعه اولئك اليهود الذين صلبوا ابن الله. فليست اعمالهم اعمال الشعب اليهودي وليس اجرامهم ليدين شعباً بكامله. ثم ان الصلب اوسع من ان يكون اقترفته زمرة من الناس تستعملهم الاهواء لاقتراف ما ينبذه العقل وتدينه العاطفة الانسانية.

هذا ما ارادت ان تقوله الوثيقة في شكلها الاول.

كان احد الاكليريكيين الكبار من السكريتيرية التي تعنى بوحدة المسيحيين قد طاف على سفراء الدول العربية واطلعهم على نيّة الكنيسة الدينية البحتة وأكد لهم ان ليس وراء ذلك من مبطنات ولا من سوء نية. وألحّ عليهم بابداء الرأي فقالوا اذا كان الامر دينياً بحتاً فليس لنا ان نتدخل في شؤون المجمع. وما ان عرضت الوثيقة تلك على آباء المجمع حتى هبّت البلاد العربية مؤكدة ان لتلك الاقوال نتائج وخيمة سياسية الا وهي تقوية اسرائيل الصهيوني في اعماله التعسفية. وربما قادت تلك الوثيقة يوماً الى الاعتراف باسرائيل كدولة مستقلة.

فأجابت الكنيسة بصوت الكردينال « بيا » ان ليس لها ثمة نية سياسية في الوثيقة. فارادتها محض دينية. طرحت الوثيقة على الآباء وطلب اليهم ان يبدوا الرأي في عنوانها وشكلها وفحواها. وكان السفراء قد صادقوا عليها مبدئياً بانهم لم يروا فيها بادئ ذي بدء ما يقض المضاجع وما يحرم العيون من النوم.

مضت سنة وعرضت على آباء المجمع خلال ١٩٦٣ مسودة اخرى للوثيقة تغيّر عنوانها فصار « اليهود وغير المسيحيين » تحتوي على ما جاء في الوثيقة الأولى. انما زيد عليها بعض الشيء عن الدين الاسلامي اذ قالت: « الاسلام يؤمن بالاله الواحد وله من مواقفه الروحية عاطفة دينية صادقة ».

افضى الآباء بملاحظاتهم وصرنا الى السنة ١٩٦٤ وما كانت دهشتنا عندما عرضت علينا صورة ثالثة للوثيقة تغيّر فيها العنوان فصار: « صلة الكنيسة بالاديان غير المسيحية ». وتغيّرت فيها المقدمة او بالحري زيدت على الوثيقة وتقول: «البشرية واحدة على اختلاف العناصر والاديان اذ خلقها الاله الواحد، والمشاكل التي تعتري قلب الانسان اياً كان هي هي: ما هو الانسان وما معنى الحياة وما هو الخير والشر، وما هو الموت والثواب والعقاب بعد الموت؟ وما هو ذلك

السر الذي يكتنف الحياة منه صدرنا واليه نعود » ؟

وزيدت ايضاً على هذه الصورة الثالثة للوثيقة كلمات جميلة على الاديان التي تفتش كلها عن جواب لمشاكل الانسان وحيرته امام الطبيعة وامام عقله فتقول : « ان الهندوسية تسبر غور الفلسفة والمخيلات الدينية كي تخفف من وطأة الحياة على البشر فتدخلهم في جوّ حياة تشفية وفي تأملات عميقة وفي فزع الى الله يحب وثقة علّهم يريحون قلقهم . اما البوذية فانها تلحّ على الانسان بترك هذا العالم الفاني وبالعودة الى الزهد والانفلات من الدنيا كي يعيش في صفاء وراحة دائمة » .

اما الاسطر القليلة عن الدين الاسلامي التي نجدها في الصورة الثانية للوثيقة فلقد توسعت هنا وتعددت فيها العقائد القرآنية : الايمان بالاله الواحد . الحيّ . القيوم . القدير على كل شيء . خالق السماء والارض . المتكلم مع البشر . الذي يفرض الطاعة لأوامر ارادته العلية . فابراهيم سار في طاعة كلية وبايمانه يشترك الاسلام . والدين الاسلامي ، وان لم يقرّ بألوهية عيسى فانه يجله كنبي ومحترم امه مريم البتول ويستشفعها مراراً . ويعلّم الناس ان ينتظروا يوم النشر عندما يجازي الله البشر حسب اعمالهم . اذ عليهم ان يكرّموا الله خاصة بالصلاة والزكاة والصوم . والمسلمون مجدون وراء حياة اخلاقية فردية وعائلية واجتماعية . واذا ما كان التاريخ يطلعنا على بعض التفرقة والعداوات التي حدثت بين مسيحيين ومسلمين فان المجمع المقدس ليحرص بكل ما في وسعه كي تنسى الايام الماضية ويصير تفاهم متبادل صادق لتقوم بين البشر عدالة اجتماعية ، قيم اخلاقية ، سلام ، حرية .

بعد هذين المقطعين اللذين ضمنتهما الوثيقة جمال تعبير وعمق تفكير تنتقل بنا الى الكلام على اليهود : « ان الرباط وثيق الذي يربط شعب العهد الجديد بابناء ابراهيم » . فالكنيسة تعترف أن ايمانها ودعوتها يتأصلان في آباء العهد القديم وفي موسى والانبياء وأن دعوة ابراهيم تشمل ابناءها الذين هم ابناء ابراهيم بالايمان (غلاطية ٣—٧) ، وان خروج الشعب المختار من ارض العبودية يرمز الى خلاص الكنيسة . فهو شعب العهد وعلى جذع الزيتونة تطعمت اغصان الزيتونات البرية التي ترمز الى الوثنيين (رومانيين ١١/١٧—٢٤) والمسيح الاله قد صالح اليهود والوثنيين بواسطة صليبه وجعل منهما شعباً واحداً (افس ٢/١٤—١٦) اذ هو سلامنا . فمن صلب اليهود كان الرسل اعمدة الكنيسة وأساسها ... وبينا العدد الكبير من اليهود لم يقبلوا بالانجيل فان الله ، على حد قول الرسول (رومانيين ١١/٢٨—٢٩) لا يزال يحبهم ، اذ انه لا يندم على ما

صنع... ولذا فان الصلات عديدة بين المسيحيين واليهود وعلى الفريقين ان يتعارفا ويحترم بعضهم بعضاً . وبما ان للاثنين ثروة يتقاسمانها فان المجمع المقدس يرذل الحقد والاضطهادات اللاحقة باليهود ان في ما مضى من الزمن او في الاوقات الحاضرة . فلا تعليم منذئذ ولا وعظ يكوّن في قلوب المؤمنين حقداً على اليهود او ازدراء بهم. فلا يجوز ان نعلّم ان الشعب اليهودي لعنه الله وغضب عليه وهو هو المجرم بقتل ابن الله . فما حدث يوم تألم المسيح لا يحق لنا ان ننعت به الشعب اليهودي المعاصر للمسيح نفسه ولا الشعب القائم في ايامنا هذه اذ مات الاله الانسان بملء ارادته (أعطي حياتي كما اريد واسترجعها ولا احد يأخذها مني) وموته محبة شاملة للبشرية كلها وينبوع نعم لمن اراد ».

. . .

في مقطع اخير توسع الوثيقة آفاق التفكير وتعطينا بعض الوضعات عن التفرقة العنصرية التي يرذلها المجمع اياً كانت ان تفرقة عرق او تفرقة لون او تفرقة ثروة او تفرقة اسياد وعبيد ويطلب الى الجميع ان يعيشوا في سلام ومحبة كأبناء أب واحد الذي في السماء .

هدف الوثيقة

كان المجمع قد اعدّ بين ما هيأ من المسودات واحدة تتكلم على موقف الكنيسة امام العالم فتلقي نظرة شاملة ودقيقة على مظاهر العالم القائم وتعطي رأيها فيها وتبدي موقفها امامها او صلتها بها . فهناك امور عديدة على الصعيد التشريعي(صلة الشعوب بعضها ببعض) او على الصعيد العائلي (الزواج والنسل) او على الصعيد البشري(الحرب والسلام والقنبلة الذرية) او على صعيد الثقافات المختلفة الخ... فكان اذاك من حق الكنيسة ان تقول كلمة عن صلاتها بالاديان التي تسيّر الانسان نحو هدف حياته . فعرضت الوثيقة التي نحن بصددها مؤكدة ان ليس فيها من هدف سياسي وان ارادتها ان تكون بيننا وبين المجموعات الدينية الاخرى رباطات دينية واجتماعية لخير العالم باسره . ولذا فلم تتعرض الوثيقة لاحكام عقائدية على الاديان انما اعطت النموذجات العملية والراعوية المستمدة من الوحي الالهي والتي على المؤمنين اتباعها كي يتمموا واجباتهم كمؤمنين.

والحالة هذه فكيف نستطيع ان نلصق بالكنيسة وبهذه الوثيقة بالذات تهمة العمل السياسي ؟ كيف نتجاسر ان نفسر نيات واضحة كهذه تفسيراً مغايراً للحقيقة ؟ كيف نضيع المنطق عندما تسود الاهواء وتجرف العاطفة اللاعقلية ؟

تريد الكنيسة في وثيقتها هذه ، وهي تعيش في عالم يسير نحو الوحدة بخطوات

سريعة : ان تعود الى الارادة الصمدانية الاولى التي بها اراد الله البشرية واحدة ، ومنها الى العمل على تقريب القلوب والعقليات بابراز ما في الاديان القائمة من قيم روحية واخلاقية تقوم سداً منيعاً في وجه الالحـــاد والتي ان دلت على شيء فهي تدل على انعكاسات الحقيقة الالهية الواحدة في مختلف الثقافات والعبادات .

ولذا فالانسان يستمد كرامته من ابوية الله نحوه ولا بد له اذاك من ان يعود فيعيش تلك الكرامة بمحبة الاخرين يلتقون جميعهم على صعيد واحد ، صعيد الاخوة التي لا تنفصم عراها وصعيد السلام حسب قول الرسول « ان امكن فسالموا جميع الناس قدر ما تستطيعون » (رومانيين ١٢/١٨) .

الخطيئة الاصلية وصلب المسيح

في المعتقد المسيحي ان الخطيئة التي ارتكبها آدم بمعصية الله هي التي شاركه بها ويشاركه بها كل ابناء البشرية اذ يولدون في الخطيئة وفي الاميال الى الخطيئة وفي حال سخط الخالق عليهم . فآدم ابو الجنس البشري كان قد اعطي من الله نعماً لم يستفد منها فخسرها وبخسرانها سبب لنفسه ولابنائه تعاسة وحقداً في معاطاتهم المتبادلة .

خطيئة اصلية واحدة تنعكس اصداؤها على نسل آدم وابنائه كلهم .

ولا ترضى الكنيسة بتقليدها ولا بالوحي الذي اتمنت عليه بخطيئة اصلية ثانية . فاليهود المجرمون الذين صلبوا المسيح لا تعبر خطيئتهم وجرمهم بقتل الاله الانسان الى ابنائهم . فهم هم الخونة والمجرمون ، يحملون وحدهم مسؤولية الجرم .

او نقول ان الشعب الالماني بكامله مجرم لان هتلر والنازيين انزلوا في الملايين من البشر عذابات همجية وفظعوا بهم وتكلوا ؟ او نقول ان العائلة الفلانية غريبة عن الاخلاق العالية لان واحداً من ابنائها خرق العهد وسار في التهتك ؟ الى ما هنالك من الامثال .

انما علينا ان نبدي هنا رأي علم اللاهوت ؟ فاذا ما صلب اليهود المسيح وكانوا المجرمين الاوحدين فما دوري انا في صلبه وما نفعي من موته ؟ ألم تكن خطيئتي سبباً من اسباب الصلب ؟ او لا تدخلني خطيئتي في سر الفداء ارتوي من دم المسيح واغسل نفسي من ادران الجرم ؟ او اظل خارجاً عن سر الفداء ارى اليهود يصلبون المسيح وكأن المسيح لم يمت الا لان اليهود افتـــروه وعذبوه ؟

فقال عن « المصلوب »

اراد الله في بدء الكون ان يولد الانسان طاهراً فاغدق عليه النعم ليعيش بارادته وحريته حياة برارة وسلام مع ضميره ومع خالقه ويعود دوماً الى سماع كلام الله في اعماقه فيقوم بما هو عبادة صادقة. فما كان من الخليقة الا ان عصت خالقها واهانته فمن يخلصها ويهديها سواء السبيل ؟ من يثأر لله ومجده ولكرامته اذ الانسان اكثر الجميل وفضل الالتصاق بالارض على المكالمة المستمرة مع مبدع الاكوان ؟

تلك الحرية التي كلل بها الخالق الانسان خليقته ما معناها وما معنى الله نفسه اذا كانت صورة او شكلاً لا طائل تحته واذا لم يعطها الله الا ليستعبدها؟ انما الله بمعرفته الالهية الازلية يعلم ان تلك الحرية لن تسير في الصواب وانها ستضل الطريق . وما هي معرفته تلك التي تجرف الانسان الى الخطيئة . فالمعرفة السابقة التي هي ميزة الخالق ليست زمنية لتعاكس تطوير الحرية وتحمل مسؤولياتها . انما هي في حاضر دائم ترى الامور وتترك للبشر ان يتحملوا عاقبة الشر الذي يصنعون او يتقبلوا جائزة الخير الذي يفعلون .

فلا تمثيلية اذاً ولا « كوميديا » كما يقول صاحب المقال عن « المصلوب » الصادر في ٢٩ تشرين الثاني سنة ١٩٦٤ ، الذي كنت ذكرت اسمه لو كان ذكر هو اسمه في مقاله .

ففي تلك المعرفة الازلية التي في ازليتها لا تعاكس الحرية في تطويرها الزمني احب الله ان يعطي للخطيئة مخلصاً وللانسان فادياً فكان التجسد وكانت الآلام المبرحة وكان الصليب وكانت القيامة من بين الاموات. الصليب كان ليس فقط ليخلص الانسان من استعباد الخطيئة ولكن ليعيده في الوقت نفسه الى خالقه ، ليريه وجه ابيه وليكون بين الخليقة وربها صداقة والفة ومؤانسة جديدة.

فالخطيئة كانت اذاً الجرم الاكبر والخاطئ كان المجرم الاكبر الذي صلب المسيح . وتلك الخطيئة وذلك الخاطئ استعملا اليهود ليمثلا الجريمة على الجلجلة . فكانوا آلة الخطيئة .

او لم يعلم الله ان اليهود سيصلبون المسيح ؟ نعود فنقول : ان يعلم الله ان فلاناً سيخطئ ليس ذلك العلم ولا تلك المعرفة اللذان يقودان الانسان بحتمية قاسية الى ارتكاب السيئات والتهور في المعاصي فمعرفة الله لا تخلق الشر والله خير هو لا شرّ فيه . ومعرفة الله ومحبته للبشر لا تفرضان على حرية الانسان ان تقترف الجرائم قسراً . فان تم ذلك ففيه هدم الدين واهانة الخالق والنزول به الى صعيد البشر . فاية فلسفة روحانية واي دين يرضى بان يكون الخالق

في دور انسان مع انسان؟ حسب قول الرسول : « لان غير منظوراته قد ابصرت منذ خلق العالم اذ ادركت بالمبروءات ... استبدلوا مجد الله الذي لا يدركه الفساد بشبه صورة انسان ذي فساد ... » (رومانيين ١/٢٠ و٢٣) .

ولذا فاننا لم نجد في المقال المذكور عن « المصلوب » الا جملة صدق فيها صاحبه وهي : « نحن نجهل اللاهوت» ولم يترك لنفسه العنان اذ غاص في بحر اللاهوت وضل السبيل . فهناك امور دينية وعقائد تفرض الرهبة والاجلال لا يحق لاحد ان ينظر اليها نظرة اللامبالي ولا نظرة الدنيا التي تفرغ العقيدة من ميزتها الدينية لتصير شكلاً فلسفياً ليس الا . وقد قال ماسينيون : « لن يفهم الدين الا من كان صاحب دين ولا يستوعب عقيدة الايمان الا المؤمن » .

فيجدر ببعض رجال الصحافة الاكارم ان يتركوا ما لا يعنيهم . فالمواضيع التي لهم ان يهتموا بها واسعة الارجاء عديدة فلا يحق لهم ان يثيروا المشاكل لتقلق الضمائر وان لا يحترموا المعتقدات ايا كانت. فهم ان تهكموا ادانوا انفسهم وان ارادوا ان يلقوا شعاع العقل على امور تفوق العقل يكونون كمن يريد ان ينظر الى الشمس من خلال نظارات سوداء تخفف من قوة الشمس ولا تنال من حقيقتها . فالكرامة ميزة الانسان العاقل . ومن الكرامة ان لا يعتني الانسان الا بما هو قادر على استيعابه وان يسكت ويعبد في قرارة نفسه الى ان ينال بنعمة الله وصفاء الضمير ما يؤهله الى خوض بحر الالوهية. وعلى كل منا ان يصغو الى الداخل وان ينقي الاناء ليصير اهلاً اكثر فاكثر للدخول في مؤانسة الله ومكالمته حسب القول المأثور : في كل منا وثني يعود الى الله رويداً رويداً والكمال للخالق وحده .

تثبيت الوثيقة

عرضت « الوثيقة عن اليهود » على آباء مجمع للتصويت في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٦٤ فنالت ١٦٥٧ صوتاً يعاكسها ٩٩ ويمتنع عن التصويت ٢٤٢ .

التصويت في المجمع على ثلاث صور : تصويت مبدئي كي يرى الآباء اذا كانت الدروس التي تعرض عليهم صالحة لتؤخذ اساساً للبحث والمناقشة . وتصويت ثان وهو : بعد ان يكون الآباء قد اشبعوا الدروس تلك تمحيصاً ونقداً ان يصوت على اقسامها واجزائها وفصولها . وفي النهاية تصويت ثالث على تلك الدروس بكاملها . فمنها ما يكون قد احبه الآباء في بعض فصوله ويرفضونه ككل . ومنه ما يكون قد رضي عنه الآباء ويكون الرضى كاملاً مع طلب بعض الاصلاحات الشكلية والفكرية .

فالتصويت على الوثيقة التي نحن بصددها لم يكن الى الآن الا مبدئياً .

فالوثيقة صالحة في نظر الآباء لتكون اساساً للبحث في الدورة الرابعة لمجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني .

فمن يستطيع التكهن بمستقبل الوثيقة بعد جدال ومناقشة الآباء وهم لا يسترحون في درسها الا صوت الضمير والتعاليم الالهية عن المحبة وعدم الرضوخ للتفرقة العنصرية ايا كانت ؛ ومن يستطيع ان يعرف من هم الآباء الذين صوتوا للوثيقة والذين صوتوا ضدها . فاسماؤهم تحفظ بين الوثائق السرية .

هذا اذا سارت الامور في مجراها الطبيعي العادي .

ولكن هناك طريقاً آخر وهو ان يستعمل قداسة البابا بولس السادس سلطته العليا للتدخل في امور المجمع — وقليلاً ما استعملها ويستعملها ليترك للاباء حرية المناقشة وخاصة في نقطة محض دينية — ويطلب الى المجمع ان لا تعتبر الوثيقة تلك من دروسه .

ولذا فالمطلوب من كل من ينظر الى المجمع المسكوني ليقف على مقرراته ان ينظر اليها نظرة الاباء انفسهم لا حسب ما يريد ان يحمل الافكار والكلمات والصيغ من اهواء شخصية ونيات لم تخطر ببال المجمع .

هكذا اليوم وهكذا كان. فعندما ظهرت رسائل الباباوات بيوس الحادي عشر وبيوس الثاني عشر ويوحنا الثالث والعشرين في المشاكل الاجتماعية اخذ اصحاب رؤوس الاموال يبتهجون كانهم رأوا بام العين ان الباباوات يدينون الاشتراكية ويأخذون برأي اصحاب العمل . وكان الاشتراكيون المتطرفون يهللون لانهم لقوا في تعليم الكنيسة ما يدحض كلام واعمال ومواقف ارباب العمل والمتمولين — انما تعليم الكنيسة هدفه احترام الانسان واحترام معتقده والسهر على راحته الفكرية والادبية والجسدية لكي يصفو عقله لعبادة الله خالقه ؛ ويسير بين صعوبات الحياة وآلامها الى خلاص لن يعطيه اياه الا من افتداه بدمه الذكي .

ولذا فالمطلوب ان ندخل في نية الكنيسة لا ان نعير الكنيسة نياتنا فهذه المؤسسة الشيخة الفتية تفكر بالامور ملياً قبل ان تعرضها على بحث الباحثين اذ هي تحترم الناس ولا تريد ان تقلق راحتهم بهذيان بشري . رائدها السلام ؛ رائدها الاخوة ؛ رائدها العدل والمحبة والتفاهم بين ابناء البشر .

خاتمة

ان الكنيسة التي تريد الانفتاح على العالم اليوم اكثر مما مضى من تاريخها — لم تكن يوماً منكمشة على نفسها وعائشة في حجر مغلق — تريد ان تقول

للاديان انها تحترمها وتجلها وتستخلص من كتبها العقائد التي لها القوة الكافية لتحسين الانسان في حياته الفردية والاجتماعية . وهي في هذا الانتاح تريد مكالمة الاديان كاديان والخيرين من ابناء تلك الاديان : اولئك الذين يؤمنون بان عليهم ان يعودوا الى الله وان يسمعوا كلامه واحاماته وان يسيروا بعاطفة عبادة صادقة نحو تكريم الخالق الذي له الملك ابداً .

لا يحق للكنيسة ان تعيش في اللامبالاة وعدم الانتباه الى ما يدور حولها من مواقف دينية عميقة ومن صرخات قلوب تتوق الى الاعالي . ففي تلك المواقف وفي تلك الصرخات قيم على الكنيسة ان ترى كيف تكون بينها وبين مواقفها الروحية وعقيدتها وما ينتج منها من خير للإنسان من صلة امينة صافية لا غبار عليها ولا غش فيها . اذ ان العالم في سيره نحو الوحدة لفي خطر ان تخنق عاطفته الدينية — وهي اساس حياته — سفسطات وترهات فلسفية الحادية تريد تحت ستار خلاص الانسان قتله واستعباده . فاذا ما اشتركت الأديان كلها في خدمة الروح وتسليط القيم الداخلية على عبودية المادة ساد الوفق وانتصرت المحبة الحقيقية .

— ٢ —

مقدمة نص الوثيقة

« في عصرنا الحاضر حيث تتزايد وحدة الجنس البشري وتزدهر العلاقات بين الشعوب المختلفة « تنظر الكنيسة بدقة الى الديانات غير المسيحية .

« الأمم كلها تكون جماعة واحدة لها اصل واحد اذ الله اعطى الارض سكناً لجنس البشري ، « ولها غاية واحدة وهي الله الذي تنير الجميع عنايته ومظاهر عطفه واحكامه الخلاصية الى ان « يجتمع المختارون في المدينة المقدسة التي ينيرها بهاء الله وحيث الأمم تسير بنوره .

« ينتظر كل الذين ينتمون الى ديانات مختلفة جواباً على مشاكل حياتهم البشرية الخفية التي تقلق « قلوبهم في اعماقها : من هو الانسان ، ما معنى وما غاية حياتنا ، ما هو الخير وما الخطيئة ، « ما هي الطريق المؤدية الى السعادة الحقيقية ؟ ما هو الموت والدينونة والثواب بعد الموت ؟ وما هو « ذلك السر الاول والآخر الذي يفوق كل كلام والذي يغمر وجودنا : منه خرجنا واليه راجعون » .

عندما تلقي الكنيسة نظرة على مشاكل الحياة او على امور لها في تطوير الانسان اهمية كبرى تحلق وكأنها الى الله تعود فتستقي من وحيه نوراً ومن كلامه قوة للمؤمنين . نظرة الكنيسة ولا نظرة التسر وتحليقها ولا تحليق التسر . فان لها في كلام الله ما يغنيها عن فلسفات الارض واحكام الحكماء وان عادت اليها مرات لتساندها ان هي وافقت الانسان في تقييم حياته او لتدحضها ان هي عبثت بالكرامة الانسانية وآلت بها الى الاستعباد . فالكنيسة تقطف الثمار حيث

تجدها ، عملاً بقول رسول الأمم : « مهما يكن من حق او عفاف او عدل او طهارة او صفة محبة او حسن صيت ان تكن فضيلة او مديح ففي هذه فلتكن افكاركم » (رسالة الى اهل فيليبي ٤ــ٨) . وفي هذا التفتح خدمة للانسان الذي تهديه الكنيسة سواء السبيل الى غاية حياته الله .

ففي ايامنا هذه حيث التطور الصناعي والآلي في اضطراد دائم وحيث تتوسع ارجاء التقنية وتتزايد اكتشافات العقل البشري ولا تزدهر فيه محبة الانسان لاخيه الانسان ، تقوم الكنيسة فتدعو الديانات كلها الى وضع قيمها الروحية والاخلاقية وقيمها الثقافية والاجتماعية في خدمة الانسان اذ هو في خطر جرح. لا جوع الجسد فحسب ولكن ذلك الذي ينزل بالانسان الى دركات المادة والآلة . جوع النفس التي تلتصق بالارض ولا تعود تعرف لون السماء .

. . .

في مقدمة البيان الذي اصدره المجمع المسكوني الڤاتيكاني الثاني عن صلة الكنيسة بالديانات غير المسيحية والذي أقرّ باكثرية ١٦٩١ صوتاً نستطيع ان نستخلص افكارًا ثلاثة هي محور ما في بقية النص من اعتبارات شتى .

الفكرة الأولى

تتحسس الكنيسة حياة العالم فتتردد في جوانبها اصداء افراحه وآلامه لتؤلمها او لتفرحها ولتحملها الى ان تجد لها الجواب الوافي وهو من صلب رسالتها . فالكنيسة ليست بمجتمع كسائر المجتمعات. هي مؤسسة الهية اعطاها السيد المسيح الاله الانسان القوة كي تجمع البشرية كلها في ملكوت الله . فلا لون لها ولا سياسة ولا غاية سوى ان تحمل للشعوب : من اي لون كانوا او الى اية سياسة انتموا او الى اية غاية ساروا ، بشارة الانجيل ، بشارة الفرح لانهم كلهم ابناء الله . هي اذًا مجتمع روحاني انساني . فيها من خصال مؤسسها ان تتفوّق على الزمن ــ وان كان اعضاؤها بشرًا ــ وتحمل رسالة الروح حيثما حطّت رحالها دون محاباة ولا مداورة . تتحمل الاضطهادات وتعيش فقيرة ، وتستطيع ان تدخل بيوت الملوك والاباطرة وهي هي لا تتغيّر ، تعطي البشارة ولا تهاب احدًا ؛ تعظ ان ليس بالخبز وحده يحيا الانسان ؛ وان الانسان اخو الانسان وان على الجميع ان يعيشوا في سلام وطمأنينة وتكاتف مستمر اذ هم ابناء الله . فلا اسل لهم سوى خالقهم ولا حياة لهم الا به ، وفي الانسان من امال واهواء تطوح به لولا عودته الدائمة الى صوت ضمير في تبراته كلام الله ومحبته وقوة سلطانه . وبعد

ان عصى الانسان الله افتداه المسيح ابن الله بدمه الذكي ليمحو خطيئته وليعيد الى قلبه احترام ومحبة مجد الله في بنوة امينة صافية .

. . .

فبينا الشعوب اليوم يرنو بعضهـا الى بعض ، وبينا آلات الاتصالات الاجتماعية كالاذاعة والتلغرة في حرب دائمة لتكون بين الأمم وحدة فكر ووحدة فلسفة تهب الكنيسة — ولم تكن يوماً بعيدة عن اسداء الرأي بقوة في رسائل رؤسائها وكتب لاهوتييها وعن الانتصار للمبادئ التي تحترم الانسان في معتقده وضميره — وتجمع رؤساءها حاملة في كل منهم مشاكل منطقة من الارض وآلام شعب وافراح شعب لتقول كلمتها الفصل في هذا السير نحو الوحدة وهذا التزايد من الصلات الاجتماعية . واول ما بدا لها ان تتساند في هذا العالم القوى الروحية الى حد بعيد اذ لا يجوز للديانات ان تظل منفردة متقاعسة تخدم الانسان في مواقفه الروحية فحسب . عليها ان تنير الضمائر البشرية لتسير بين تقلبات الدهر وتنعنات العقل الحائر نحو مجتمع افضل يسود فيه الروح الذي يحيي الجسد ويحيي المجتمع وبدونه تتفكك اواصر الاخوة واواصر المحبة والصداقة . فاذا ما فكر انسان اليوم ان باستطاعته ان يعيش على الارض في فردوس ونعيم بعيداً عن متطلبات نفسه ومتطلبات وجدانه وقد اغلق عليهما الباب فعبثاً يصنع . فالضمير لا يموت الاّ بموت الله والله ابدي في يده الحياة والموت .

يعيش انسان اليوم في تخدير جسدي وفي اللاوعي ليستفيق يوماً فيرى ان الحياة خاوية فارغة اذ الآلة التي فيها اماله وتمنياته لا تسد جوعاً ولا تروي عطش انسان خلق ليتسلّط على الآلة لا ليستعبَد .

يعيش انسان اليوم في كبرياء وطموح . انما ذلك الكبرياء وذلك الطموح يضمانه الى الارض ، والكنيسة تريد انساناً اعظم من الارض ومتفوّقاً عليها بتلك القيم التي اتمنه الله عليها عندما كوّنه بمقدراته الشخصية ليصير بين تقلبات الزمن نحو غاية خلاصية لا تغنيه الارض عنها الا وهي خلاصه الابدي في رؤيا الخالق وسعادة لا تزول — فطموح الكنيسة اوسع واعظم من طموح انسان اليوم لنفسه .

والحالة هذه تخاف الكنيسة على الانسان من تضييق الآفاق وتخاف على البشرية جمعاء من وحدة تقللها ، وحدة تقوم اساساتها على بعض سفسطات فلسفية او على مبادئ تحصر الانسان في ارض تزول وفي آفاق لا نور فيها . ولذا ، والوحدة الحقيقية من معطيات الوحي ومن غايات الفداء ، قامت الكنيسة واوادت ان يدوي صوتها في عالم ، وان ابتعد فيه عنها كثير من الناس ، يظل

في حنين امين الى المبادئ التي تصرخها من اعماق ضميرها وحياتها . الا نذكر ما كان لرسالة يوحنا الثالث والعشرين « ام ومعلمة » من اصداء ، ولرسالته « سلام على الارض » من ترديدات خيّرة في قلوب المجتمعات والشعوب. فالوحدة التي تسير نحوها الأمم هي من صلب رسالة الكنيسة التي لا تنفك تعلم ان الله خلق البشر كلهم وان المسيح الاله افتدى البشرية كلهـا بدمه الذكي وتعلّم ايضاً بعد بولس الرسول ان جسد المسيح السري واحد فيه يلتقي الاخوة وفيه لا تضيع شخصية الافراد بل تتكوّن وتزدهر وتنمو . فكل من عاش فيه استمد قوة وزاد قيمة ، لا كمن ينخرط في حزب لا ديني اذ يسيطر الحزب على تفكيره وعلى حياته فيصير آلة في يده وتغيب عنه شخصيته وتتوارى قيمه الروحية في خدمة لا يعلم مصيرها .

الفكرة الثانية

لن تركز وحدة الشعوب الا على اساس واحد وهو الله خالقها وغايتها . فالشعوب كالانسان الفرد ليس لها سوى اصل واحد وهو الله وغاية واحدة وهي الله . فان سارت على طرق الحياة لن تجد راحة وطمأنينة الا في الله والمبادئ الروحية التي تسنها لها شريعة الهية فيها صفاء وفيها محبة وفيها اخوة وفيها تكاتف في الآلام والافراح الى ان يجتمع الكل في حضرة الله في امان وحبور لا يزولان .

فلا معنى للالحاد ايّاً كان، عملياً او عقلياً . انردّ الخليقة ، مادية او عاقلة ، الى قوة غاشمة هي مبدأ الاكوان ؟ اويرضى عقل سليم بذلك ؟ انقول أن مبدأ الخليقة قوة غير شخصية ، قل الطبيعة او ما فيها من قوى تطوير وتبديل ؟ اويرضى الانسان ان يتأصل في مبادئ هو اكبر منها ويدينها ؟ انردد ان مبدأ الحياة هو الحياة بالذات او لقاء ذرات بعضها ببعض كوّنت العالم ومنذئذ تطور وصار الى ما هو عليه ؟ وما هو ذلك اللقاء وما هي الحياة تلك ، ينبوع ما نتج منها ؟ انقول مع بعض فلاسفة الالمان ان السؤال عن مبدأ الحياة لا معنى له ولا معنى للسؤال عن غاية الحياة. فعلينا ان نحيا ونموت وهذا هو المشكل بالذات . ولكن ما العمل ؟ فالعقل لا يرضى الا بفهم من هو والى اين يذهب الانسان وما معنى حياته ؟ او نجد في الحلولية حلاً لمشكلة الوجود ؟ فكيف اصير الى الزوال في قوة لا شخصية تذوب معالمها تحت ستار القوة الخالقة ؟ اذ كيف يضمحل الانسان في ذلك الكائن الذي فيه تنصهر الكائنات كلها لتكونه على حد قول بعض الفلاسفة .

والحالة هذه. كيف تستطيع الشعوب ان تسير نحو وحدة اجتماعية وثقافية

إلّم تضع لذلك اساساً مكيناً هو الله ؟ فعلى الكنيسة ان تصرخ من اعماقها ان لا وحدة الا بالخالق وان تدعو الديانات الاخرى لتقوم بايمانها وبما ينتج من ايمانها من قيم روحية سدّاً منيعاً في وجه الالحاد الذي وان انتصر زماناً فانه الى الفشل سائر . يفرض السكوت على انسان اليوم ويبكت ضميره ويقيد حريته الدينية ولكنه لا يستطيع ان يقتل الضمير الا اذا توصل فقتل الله، «اما الساكن في السماوات يضحك والسيد يستهزئ بهم » (المزمور ٢–٤) .

واذا ما انكر الانسان مبدأ المطلق الخالق السرمدي او يستطيع ان ينكر غاية حياته ؟ نعم . ولكن ايرضى الانسان بالسير نحو الانحلال والزوال وكيف يكون ذلك وروحه تفوق المادة وتجعله يعيش في جوّ تفكير وتأمل ومسؤولية لا تلجه المادة ولا من هو دون العقل .

او تنتهي الحياة في ضحكة هزء وتخرية ام في شؤم فكر ؟ وما الفرق اذذاك بين كرامة الانسان ومن هو دونها ؟

ولقد زال ذلك الجدال الذي تعثرت فيه الفلسفة في اواخر القرن التاسع عشر واوائل الجيل العشرين اذ كان بعض الفلاسفة يقولون ان الروح ليست الا مظهرًا عالياً من تطوير الجسد والمادة . فكيف تستطيع الروح ان تنبت على جذع المادة ومن اين للمادة تلك القوة ان تعطي ما ليس من كنهها ؟

تقوم الكنيسة لتدحض هذه الاقوال كلها ومعها الديانات الاخرى والفلسفات الروحانية فتقول : ان الله اغدق على الخليقة من نعمه اغزرها ومن عطاياه احسنها : عناية ، عطفاً وارادة خلاص يقول النص الذي نحن بصدده .

في سير الانسان على هذه الارض تعتريه مشاكل ومخاوف يتسلط عليها لو فكّر بعناية الاب السماوي تسانده وبعطفه الفياض وبارادته الخلاصية . فلا تشاؤم بعد ذلك ولكن قوة وعزماً يحملان الانسان الى الامام في تزايد دائم وتصاعد واضح .

يستطيع الانسان ان يبتعد عن خالقه بأثمه وخطيئته وبذلك يدين نفسه . انما الله يدغدغه بنعمه طوال حياته ويوقظه من سباته ويعود به الى الطريق طالما فيه نسمة حياة وعرق ينبض . ولذا فالانسان في هذه الحياة مغمور بنعم الله لو فكّر ، ومغمور بعطاياه لو انتبه . وما ارادته تعالى الان يجمع الأبناء كلهم في المدينة المقدسة حيث يكون الكل في الكل ، لو سار الكل في طاعة وكرامة .

الفكرة الثالثة

مشاكل الحياة ، وهي كثيرة ، تجد الحل الصافي في العودة الى تلك العناية

الاخيرة. مشاكل الانسان على البسيطة هي هي ولن تتغير : اصل الحياة وغاية الانسان ومعنى الحياة ؛ معنى الخير والشر ؛ العقاب والثواب بعد الموت. اما مشكلة المشاكل : ما هو الموت وما هو معناه ؟

كلها سؤالات يطرحها الانسان على عقله الحائر وينتظر الجواب ولا فلسفة تعطي الجواب الوافي اذ تقف أحد موقفين. موقف الحائر الذي يقرّ بان هذه المشاكل ليست من صلاحياته او موقف الثائر الذي تنكسر شوكته على صخرة الغائب فيعود مطأطئ الرأس متشائماً. اما الايمان يفتح الباب على مصراعيه ويكشف الافاق النيّرة ويساعد الانسان في التقلب من يد الله التي اوجدته الى حياة تحملها اليد نفسها الى الم وفرح الى خير وشر حسب حرية شخصية هي شرف الانسان ومجده وهي ايضاً سبب تعاسته اذا ما وجهها التوجيه السيّء الى موت اي الى العودة الى الوطن الحقيقي (اولم يقل الغزالي : ان هذه الحياة هي حلم ينتبه منه الانسان في الحقيقة في الابدية ؟) فتكون السعادة او العقاب؟ انما تلك اليد التي منها خرجنا واليها نعود هي يد عناية الحية لا تتركنا ولا تتاركنا فتظل تحملنا وتهدينا السبيل الى ان نعصي ارادتها فنتركها وتبقى تحرك فينا عواطف الندامة ودموع التوبة بالألم او بالفرح فنعود نشاركها الحياة وهكذا دواليك الى ان تنفتح امام ناظرينا معرفة اسمى واقوى لذلك الذي لا ينفك يتقرب منّا ونبتعد عنه اذ هو في الداخل اعمق من اعماقنا وفي روحنا اسمى من قمة الروح.

فالحياة مأساة نخوض فيها معركة : شئنا ام ابينا ، لا معركة سيف ولا معركة مال ولكن معركة اسمى وافضل ؛ معركة الروح وانتصارها على المادة : معركة الروح التي نحن دوماً ، وان انفلتت من نضال الكرامة ؛ ترنو بها الى ما يغذي فيها التوق الى عل ويسد فيها الفراغ الذي تختبره وان امتلأت من الخرنوب الذي تأكله الخنازير (انجيل لوقا ١٥–١٦).

فلهذه المشاكل تطلب الكنيسة من الديانات ان تعطي جوابها وان تحرص على تكاتف بنيها مع من يؤمنون بالله وبالقيم الروحية لخير الانسان.

خاتمة

الى هذه الاعالي يقودنا المجمع الفاتيكاني الثاني عندما يريد ان يحدد صلة الكنيسة بالديانات غير المسيحية. الى هذه الاعماق من التفكير والتأملات يسير بنا عندما يريد ان يقول كلمة الحق في تلك الصلة.

كانت الوثيقة عن اليهود في صورتها الاولى ، كما قلنا في ما سبق ، مزمعة ان تكون ملحقاً لما سيقوله المجمع عن وحدة المسيحيين وصارت الوثيقة في صورتها

الثانية والثالثة بين الظهور على حدة او بين ان تكون ملحقاً لما سيقوله المجمع عن الكنيسة من الوجهة العقائدية . فاين للسياسة من محل هنا واين للمطامع الدنيوية من دور؟

ليست الكنيسة أمّة او شعباً من شعوب الارض . الكنيسة هي مؤسسة روحانية زمنية تتجسد في الشعوب وفي الامصار المختلفة حاملة معها بشارة سامية ووسائل تحقيقها بمحبة وصفاء خدمة للانسان في سيره نحو الهدف. فتجمع ولا تفرّق ، تهدي ولا تضلل ، تسمو بالانسان ولا تذله : تعطيه من كنزها جدداً وعتقاً ولا تتركه عتاجاً يعضه العوز . الكنيسة تحيي ولا تميت .

— ٣ —

نصّ القسم الأول من « الوثيقة » = « الديانات غير المسيحية المختلفة »

« نجد منذ القدم عند أمم مختلفة بعض الادراك لتلك القوة الخفية الحاضرة في سير الأمور « وتقلبات الحياة البشرية ، نجد بخاصة ومرات عديدة معرفة الالوهية المطلقة ومعرفة الآب [السماوي] .
« ولقد جربت الديانات التي ترتبط بتطور الثقافات ان تجيب على هذه السؤالات بمفاهيم دقيقة « وبلغة مثذبة .

« في الهندوسية يسبر الانسان غور السر الالهي ويعبر عنه بغزارة اساطير لا ينضب معينها « وباجتهادات فلسفية نافذة ويفتش عن التحرر من ضيق الحياة بطرق تنسكية وبتأملات عميقة « وبالفزع الى الله بمحبة وثقة .

« أما في البوذية فتعرف الى النقصان الجذري الذي يعتري هذا العالم المتقلب وتعلم الطريق « التي بها يستطيع الانسان ، بروح تقية وواثقة وبزهد وتنوير مستمر ، التحرر من الأمور « العابرة والتوصل الى راحة ثابتة .

« وعلى هذا المنوال تسير سائر الديانات الموجودة في العالم كله . فانها تعترض بصور مختلفة « حيرة قلب الانسان وتعرض عليه طرقاً اي عقائد او وصايا تدبر الحياة وبخاصة طقوساً مقدسة .

« فالكنيسة الكاثوليكية لا ترذل ما في هذه الديانات من حقيقة وقدسية . فهي تبشر بلا ملل « بالمسيح الذي هو « الطريق والحياة » (يوحنا ١٤ /٦) والذي به صالح الله كل شيء معه . وبينما « تعلم ما في العالم من استعدادات متعددة للخلاص فانها تحترم وتقدر طرق العمل والحياة ، تحترم « وتقدر الوصايا والعقائد التي وان اختلفت في امور كثيرة عما هي عليه في الديانة الكاثوليكية تعكس « نور تلك الحقيقة التي تنير كل انسان .

« تحث الكنيسة ابناءها الى مكالمة اتباع سائر الديانات والى التكاتف معهم والى ان يحفظوا « مع احترام كامل ايمانهم الكاثوليكي ، تلك المبادئ الروحية والاخلاقية الخيرة وبخاصة تلك القيم « الاجتماعية الثقافية الموجودة عندهم وان يسيروا بها صعداً » .

بينا مشاكل الحياة التي عددناها مع « وثيقة » المجمع المسكوني تجندل الانسان ارضاً وتتركه في حيرة وارتباك فان العقل البشري خارجاً عن وحي الحي ينير الطريق يفتش عن جواب بين طيّات الطبيعة وثنايات الفلسفة لينهض بالانسان الى

جوّ هدوء وأمان يسهّل عليه العيش . واوّل ما يصل اليه إدراك قوة لا يحدّد كنهها ولا تُكتشف صورتها ، تُهيمن على البشر ، تسيطر عليهم ، تسيّرهم وتخلص بهم الى الموت ؛ قوّة خفيّة يهابُها الانسان ولا يفزع اليها في صعوباته ، يعيد اليها كل ما يعترض اوقاته وحياته ويجعلها مسؤولة عمّا يصدر في العالم من خير ومن شر. فاذا مرض فكّر ان المرض عقاب واذا نجح ظنّ ان النجاح مكافأة . فليس له مع تلك القوّة من معاطاة شخصيّة ولا تتّسم بامارات الحياة والسلطة الواعية . فلم تتكلّم في التاريخ ولم تظهر نحو الانسان من عطف وعناية ما يجعلها في نظره الميناء الأمين . فباتت عبئاً على اكتافه يرزح تحته مرّات ومرّات يقبله ويجد فيه مساندة على سلوك طريق الخير والخدمة . وهو يعلم حتى العلم انها تترقّبه وتسهر على هنواته وسقطاته وعلى آماله واعماله الخيّرة وما من سبيل الى معرفة ارادتها في التوجيه نحو هذا وذاك . فيبيت الانسان في وَلَه وينام على خوف وينهض وهو الى بعض الأمل مائل وهكذا تنقضي الأيامُ إلى ان يغوص في لجّة اللاوعي . انما يرى ايضاً ان لهذه القوّة الدور الكبير في « تسيير الأمور وتقلّبات الحياة البشرية » وكأن لها سلطاناً لا يردّ .

ولكنّ الانسان في تطويره الفلسفي الروحاني لا يقف عند هذا الحد انما يصل به التفكير المنطقي الى ان تكون تلك القوة مطلقة لا يعتريها انحلال ولا يصيبها عجز . فهي آذاك الالوهية بالذات التي تفوق التفكير وتسانده ، تسيطر على الحياة ولا تنقضها ، تسيّر الاعمال البشرية ولا تجبرها . فالم تكن كذلك فما من معنى لتلك القوة التي يستطيع الانسان برُقيات ان يستميلها اليه أو أن يُبعد خطرها عنه . فالالوهية مصدر الاكوان وغايتها ، هي السبب غير المسبّب ، فيها تجد الخلقية معناها واليها مآلها اذ المادة وان علت والعقل البشري وان سما لا يستطيعان أن يفسّرا للانسان من هو وما اصله وغايته فيظل حائرًا مرتبكاً الى ان يُعطيه الاله من نوره قبساً يهتدي به في الطريق .

. . . .

لا يزال الانسان طوال حياته — وهو لا يستطيع الاستمرار في أجواء علوية — يميل الى الارض وفي قلبه جرح كوّنته الخطيئة . يرى الاله بعيدًا عنه ، يتخبّط في صعوبات وآلام ، يناجي من فوقه ويشعر ان في تلك المناجاة راحة وصفاءً ولكن لا ينفكّ يلمس أن الألم مبرّح وأن آفاق الدنيا ضيّقة وانه لا يتحسّس الاله دوماً ، انما لا يستطيع الانفلات منه وضميره يصرخ ان العودة الى الباطن خير حيث الالهامات الصحيحة والتوجيهات النيّرة وحيث يشعر الانسان انه بدون الاله متروك على الارض تائه وان طالت يده الثروات وامتلأت

خزائنه ذهباً وأن الحياة بدونه مجرّد كلمة. فتطيب له اذّاك المكالمة مع الاله ولكن ليس له الى ذلك من سبيل فيقف في عقله حائراً ويتساءل لِمَ الاله بعيد هكذا : أليس له من صفات البشر الصفات المطلقة ، أليس فيه ما في البشر من خير وبصورة مطلقة . فكيف نرى الابوة البشرية بعطفها ومحبتها وحنانها تحتضن الأبناء وتسربلهم بالعطايا ولا نرى ذلك في الاله . ولِمَ لا يكون ذلك الإله اباً ايضاً ، للانسان معه من الصلات الوديّة والمواقف الشخصية الأمينة ما يُملئ وحدته وينير انفراده وخلوته على الأرض . وهكذا يتوصّل العقل بالتشابيه والمقابلات الى استدراج الأمور نحو وضوح اكبر يتجاوب وتفكير الانسان المنزّه عن كل غاية انانية وعن كل أثرة ، يتجاوب ومتطلّبات ضميره واعماق سريرته .

فلا حياة للانسان بعيداً عن العطف والحنان ، وفيه علاوة على عقل يرنو الى الحق المطلق ارادة تودّ أن تستريح في الخير المطلق ما دام فيها حياة . فهي تتألم من العزلة والانفراد في هذه الدنيا ولا تجد في المخلوقات كلّها ما يسدّ جوعها وتوقها الى خير تعود اليه اذ تظلّ حائرة الى ان تثبت فيه . ففي الآب الذي يكتشفه العقل سبباً للوجود يجد الانسان مَن يفزع اليه في كل آن ومَن في حنايا قلبه عطف يهدّئ روعه فيسير والأمل يوجّه سعيه وراء الهدف . وكيف يستطيع ان يقف في الالحاد يبلو جريمة الانسان ضد اخيه الانسان اذ يريد أن ينتزع من عقله وارادته مّا هو عقله وارادته بالذات فكلاهما لا يعددان الآ بالحق والخير ويريد الالحاد ان يلقمهما خبز الارض وخرنوب الخنازير .

. . .

ليس في قدرة العقل ان يتجاوز هذه الحدود . فمن ادراك القوة الخفية الى الالوهية فالى الآب سير صعب يسهل على من تخلّى عن كبريائه وانتبه لصوت داخلي يردد متطلّبات الروح في اسمى صورتها واعمق نبراتها . فالحقائق الفردية والخيور الأرضية وان اسكتت العقل والارادة مرّة ومرّات تذكي فيهما دوماً نار الطموح الى ما فيه الخيور المطلق والثبات الأمين .

. . .

ولذا فعندما تعرض الديانة المسيحية على الانسان ، كبيراً وصغيراً ، مثقفاً او جاهلاً ، غنياً او فقيراً الوحي الالهي الذي من كنهه ان يطلعنا على ابوّة الآب الذي يحبنا ويعطف علينا ويعايشنا ويسير معنا طريق الحياة هادياً وساهراً ومغدقاً النعم ، مصدر الخيور وغاية الوجود ، عندما ينبهنا ذلك الوحي الى ما في قلب الآب من حنان ومن سعة غفرانٍ ورحمة ، عندما يردد ان الآب ذاك

يأخذ ابناءه ويدغدغهم بعطاياه كما تأخذ الأم ابنها الى خديها بمحبة لا توصف . اذاك يرنو العقل الى محبة كتلك والى حقيقة تتجاوب ومتطلباته الداخلية وتفوقها بصورة مطلقة . ولكن الاندهال يتزايد عندما يعلم ان تلك المحبة الالهية تجسدت بابن الله وهو الطريق والحق والحياة بالذات وليس من حقيقة او حياة الا به اذ هو كلمة الآب ، فيه ما في الآب من قوة الهية ومن مجد الهي ومن مطلق الهي . متساو للاب في الجوهر الذي به كان كل شيء . اتى الى الارض ليعلمنا ما كنا نسيناه أن الله ابونا وليصالح الانسان مع الآب السماوي فلن يتركه يعاني من خطيئته امرّ النتائج وأتعس الأحوال . عنايته لا تنطفئ وبركته علينا الى مدى الدهر نستقي من ينبوع حنانه نوراً وقوة وعزماً ومن سرّ محبته اللامتناهية في القربان المقدس قوتاً وغذاء لرسالة اخوة بين البشر ولتوحيد القوى في السير نحو الغاية الوحيدة : اللقاء في ملكوت الله في رؤيا لا نهاية لها وفي فرح لم ترد عين ولا سمعت به اذن ولا خطر على قلب بشر .(رسالة بولس الاولى الى اهل كورنثس ٢/٩) .

وهذا اللقاء يبدأ على الارض في كنيسة اسسها وهي عنوان محبته : فيها يلتقي الاخوة ؛ اعطاها سلطانه واقامها وحدها مكملة لرسالته بين البشر مرشدة واعظة مؤنبة وفاتحة ينبوع نعمه لمن يريد ، تهدي الى الحق المطلق وتشرك في الاله مؤسسها كل من اراد ان يُعطي طموحه معنى .

والمسيح الإله أعطى كنيسته روحه القدوس المنبثق من الآب والابن ، الواحد معهما في الجوهر ؛ ليسهر على نموّها وليقيها انزلاق الغلط والضلال فهو يسيّرهـا في كل حقيقة لخير الانسان ويغذّي فيها محبةً هي بمثابة حيوية تحملها على الكد والجهد وراء الوصول الى البشر كلّهم لتعطيهم من رسالتها فيضاً لا ينضب وغزارة نعم تظلّ على مرّ العصور رمزاً فعّالا لقداسة تشهد لنفسها بالعجائب والمعجزات. وهو هو الروح القدس الذي يُعطي البشر ؛ في حكمته الأزليّة ، عقلية المسيح إلى درجة لا يستطيعون العيش الاّ بعد ان يحددوا موقفهم بالنسبة اليه . ولا عجب اذا قام الفيلسوف الروسي دوستويفسكي يقول : « مشكلة الحياة واحدة وهي موقف الانسان تجاه المسيح : معه او ضده». وليست ثمّة مشاكل غير هذا المشكل الأساسي . فلسفات العصر وخزعبلات العقول الطامعة الى الأرضيّات والى الاقتصاديات تودّ ان تربط الانسان بالارض كأنه بطنٌ عليه ان يملأه من خيرات الارض لا عقلٌ لن يسكن روعه وتهدأ وحرجته الاّ في مَن يعطيه الحق المطلق والخير المطلق .

. . . .

انّى للعقل أن يصل وحده الى هذه الاعالي وان يَسبر غور هذه الحقائق لولا الآب بكرمه وعطفه احبّ الانسان فأعطاه ابنه فداءً عن خطيئته ووسيطاً أميناً للعودة الى الصواب وروحه كي يرافقه في ارض هزّتها الخطيئة فسوّدت آفاقها ليعيد اليها نوراً فقدته واستقامة حياة خسرتها.

انّى للعقل أن يهتدي وحده بدون نعمة الله وكلامه الخلاصي وتواضع الخليقة الى طريق الحق هذا. انما ما أعطاه الله للانسان من مقدّرات يجعله « يبصر غير المنظورات منذ خلق العالم ويدركها بالمبروءات وكذلك القدرة الازلية والالوهة حتى انه لا معذرة له » على حد قول رسول الأمم في رسالته الى اهل رومة ١ / ٢٠ .

الهندوسية

لا يقوى الانسان على تحديد كنه الاله المطلق بمفاهيم عقليـــة محضة. فالجوهر الالهي يفوق الكلام وكل ما يستطيع الانسان ان يحمله من المعـــاني فيستعين للتعبير عن وجود الله وصدق حياته الداخلية بصور تترك للعقل العنان في التفوق على حدود الكلمة والمفهوم فيكون للمخيّلة اذاك الدور المهم في تسهيل الخوض في بحر الالوهية. هكذا صنع افلاطون في الفصل الاخير من كتاب « الجمهورية » عندما توسّع بسرد قصة « أور الارمني » الخياليّة، وهكذا صنعت الهندوسيّة ايضاً. ولن ينكّرن احد ان ليس للقصص والأساطير تلك في نظر الفلسفة او الدين من حقيقة. انما يستعملها العقل لتسانده في مد النظر وراء الآفاق الأرضية الى ما هنالك من حقيقة روحانية ثابتة لن يقوى على بعثها كاملة حيّة. فالهندوسية هي الشكل التوحيدي للدين الشعبي حيث كريشنا وفيشنو وسيفا وراما والإله براهما وغيرهم من الآلهة من الطبقة الأولى يعتبرون كمظاهر مختلفة للاله الواحد الشامل فيصح إذاك ان تجتهد في ايجاد التعابير الصحيحة او القريبة الى الصحة لتفي ذلك الاله حقّه مما يتطلّب من الخليقة من استسلام كلّي ومن وحدة صوفية كاملة. إذ كيف يستطيع ان يعبّر العقل بمفاهيم جافّة عن وحدة الوجود وعن الاله الذي ليس بذلك الخالق القريب والبعيد في الوقت نفسه عن مخلوقاته والذي تتكلم عليه التوراة ولكنه ذلك السبب الاول الذي منه يصدر العالم واليه ينتهي فيغوص في الاله ولا يعود له كيان شخصي، فتهرع اذاك الهندوسية الى الاساطير تشرح وتفسّر وكأنها سلّماً به تتسلّق درجات الألوهة.

واذا كانت هذه الطريقة العقلية للتوصّل الى الاله فان للهندوسية طريقة

عملية لذلك وهي ان يعود الانسان بتواتر الى التأملات والتقشّف . يحصر نفسه عن العالم ويترك خزعبلاته ويعيش في عالم صحيح صادق . والمعلوم ان التقشّف يطهّر النيّة ويخضع الجسم لطموح النفس وتتكوّن وحدة اساسية بين الروح والجسد هي الوحدة التي ارادها الخالق . انما الانسان يفرّق ما جمعه الله بانتباهه الى الخارج والعابر وبعدم عودته الى الداخل حيث الخلاص . ولقد تتوصّل الهندوسية الى درجة من التقشّف لا معنى لها سوى هذا الخلاص الى الاله وفي ذلك تسلك طريق وحدة الوجود . فالحياة ليست سوى التمرين الصحيح على الولوج في بحر الالوهية الذي هو من اسس الدين حسب الهندوسية .

وهذا التقشّف الإرادي يقود الانسان الى نكران هذا العالم والى ان ليس ثمة من قيمة لعمل البشري لتطوير الامور . فالهندوسية لا تعرف الاّ العشيرة والمتطلّبات التي تفرضها على الانسان . واذا ما همّت بعد ذلك لتقييم العمل الانساني في الحياة ففي ذلك ثورة على ما مضى من مبادئ فلسفية أرستوقراطية وثورة على ما قيل من نكران هذا العالم . وفي الحالين يظلّ التوجيه الروحاني الأساسي نحو المبدأ الاوّل .

البوذية

اول ما بدا لبوذا من مشاكل معرفة التخلّص مما يدعونه التقمّص او تلك الولادات العديدة التي لا نهاية لها . فأنّى للانسان ان يخلص من هذا الألم . فلا للتقشّف والمبالغة في الاماتات الجسدية من أهمية وليس للتمتّع بالحياة من مساعدة جديّة . فالنفع الوحيد في العودة الى روحانية اصفى وأعمق . ففي الزهد الباطني لا في الاعمال الخارجية جمال وخير الحياة .

نفى بوذا وجود كائن مطلق واقرّ بوجود آلهة وما هم الاّ عابرون كالانسان وإن سموا فلا عناية لهم بالانسان وليس له من واجبات نحوهم . ولقد توصّل بوذا الى نكران النفس الشاملة والنفس الفردية وعلّم تلاميذه ان الحياة كلّها ألم ، وان العالم لا يُعطي الفرح الحقيقي وزاد : « الولادة ألم والشيخوخة ألم . المرض ألم والموت ألم . الوحدة مع من لا نحبّ ألم وفراق من نحبّ ألم وعدم الوصول الى ما نشتهي ألم » . والحياة ليست ألماً الاّ لأننا نشتهيها وما التقمّص سوى نتيجة تلك الشهوة . فاذا اراد الانسان ان يتخلّص من ذلك الألم فما عليه الاّ ان يطفي فيه جذوة الشهوة وارادة الحياة . وعندما يصل الى هذا الموقف يدخل في النيرڤانا ولا يعود يتقمّص . والنيرڤانا هي تلك الغبطة التي يلجها الانسان ولم تعد روحه تتحسّس نفسها ، هي الراحة الدائمة بعيدة عن كل همّ وشوق وتوق .

لقد ادخل بوذا الشفقة في فكرته عن الحياة . وإن هي الاّ ان يرنو الانسان الى الألم الذي يحتمله صاحبه دون ملل ولا انقطاع . فطلب اذاك من رهبانه ان يكون لهم امام الحياة موقف عطف . وهاك ما قاله لهم : « ايها الرهبان اليكم ما يجب عمله : لا يضطرب قلبكم من شيء . لا تفوهوا بكلمة سوء . كونوا رحماء واصحاب عطف وقلب محبّ دون خداع . فليصل عطفكم الى كل فرد من افراد البشرية وبهم يصل الى الكون بكامله ، صافياً من كل حقد وضغينة ». فما من تجمع القوى الروحية التّي يهيأ العقل الى ذلك . فلا تأمّل بدون تمارين روحية تطهيرية . ولذا فالنقيّ القلب والمملوء عطفاً هو ذاك الذي يستطيع الزهد بالدنيا . ومن وصل الى هذا دخل في الدرجة الرابعة من الرؤيا وكان له ان يرى حياته كلّها في ماضيها عبر العديد من الولادات التي مرّ بها . والدرجة الرابعة تلك هي ان يسهر الانسان بكل ما فيه على السلام الباطني ولن يقترب منها الاّ اذا عاش فضائل ثمانية : ايمان طاهر ، ارادة طاهرة ، كلام طاهر ، عمل طاهر : حياة طاهرة ، توق طاهر ، تفهّم طاهر ، تأمل طاهر . والعمل الطاهر ليس سوى الامتناع عن العمل السيء ولقد قال بوذا : ثريّ الافراح والحرّ من الاحزان مَن ليس له عزيز في هذا العالم » .

من وراء هذا الموقف يتراءى دوماً نكران العالم . ولكن كيف يستطيع بوذا ان يوفّق بين هذا النكران وبين الحياة العملية التطهيرية . فاذا رفض للاعمال قيمتها يظلّ في السلبيّة الغير البناءة انما ارادته الأساسية هي الكمال الباطني . وفي هذا فرق جذري بين تعليم بوذا وتعليم المسيح الاله يهيمن على سائر الفروق ما بين الاثنين : فبينما بوذا ينكر العالم ويميّز بين العالم المادي والعالم الغير المادي : يأتي المسيح الاله ويرذل العالم الطبيعي السيّئ ويعيش في انتظار تبديله وتغييره في عالم فائق الطبيعة كامل . فاذا ما أنكر المسيح العالم فانه يستند الى مثل عالٍ على الصعيد الأخلاقي يحرّك العالم ذاك الى قمّة الجمال والخير .

. . .

ولذا ، وان دُهش من دخل في اعماق البوذية واعتراه العجب امام عظمتها وقوّتها الروحانية الكبيرة في تاريخ البشرية فانه يشعر بالفرق الأساسي الكلّي بين سكياموني والمسيح الاله . واذا ما تعمّق في هذا الفرق صار الى تفهّم الحدث المسيحي الفريد . فللمسيح موقف امام الحياة لا يجاريه فيه احد : وهو وحده البدء المطلق للحياة الانسانية في ايمانها ورجائها ومحبّتها . واذا ما قلنا هذا فلا ننكر ما بين المسيحية والبوذية من الشبه يعجب له العقل . فهناك نصوص وكأنها مقتبسة الواحدة من الأخرى . ولكن العجب يزول عندما يرى العقل النتائج التي آلت اليها الديانتان اذ التقارب الكلامي لا طائل تحته وهو سطحي ووهم .

والكلام في الاجواء المختلفة يحمل بين طيّاته ثروة روحية تفسّرها العقلية والروحانية والوضعيات الاجتماعية المختلفة . وما علينا الاّ أن نأخذ مثلاً يردّد هنا وهناك المفردات عينها انما تحمّلها الأجواء هنا وهناك المعاني والتوجيهات العديـــدة المغايرة .

من بين التشابيه والامثال التي استعملها بوذا والتي تنبي عن ارادة تعمّق وتفكير لا يتوصّل اليه العقل مثل شجرة الحياة التي ضمّنها المعاني الثرية :

فالشجرة ترمز في البوذية الى الانسان الذي عليه أن يجمع قواه الروحية فيعود الى الباطن لارواء عطشه اذ يغوص في لجج الوجود ولا يعود يأبه لتطوّر الكون او للتكاتف مع الانسان اخيه وينقطع عن الدنيا بزهد او قل بموت إرادي فيه روعة وفيه عظمة

امّا في المسيحية فالشجرة ترمز الى الحياة التي تنبع من قلب الله وتترك الانسان بحيوية تسمو قواه الطبيعية وتقوده الى الخلاص . فهي تارة شجرة الحياة وتارة شجرة الألم المخلّص ، وشجرة الأمل والرجاء وشجرة الاسرار ، منبع النعم والبركات .

. . .

لا فرق في البوذية بين شجرة الحياة وأية شجرة أخرى اذ انها تنبت وتحيا في عالم من العوالم العديدة .

امّا في المسيحية فشجرة الصليب وحيدة لا تجاريها شجرة اخرى وهي نور وهي امل واليها يسند الانسان رأسه فتأتيه بالتعزية وتقوده الى متابعة السير حثيثاً آمناً . فانه لا يحمل الألم وحده انما يشترك هو بألم من خلّص العالم على خشبة الصليب التي حملت شمس الحقيقة وخلاص البشر .

. . .

في البوذية يغوص البوذا بحر اللاشخصية ويذوب في الكيان الشامل ولا تعود معالمه واضحة ثابتة .

اما في المسيحية فالمسيح يسود الكون وتظلّ شخصيته الواضحة الإمارات جاذباً قوياً ؛ يسوع الناصري ؛ انسان واله الى الأبد ، في يده الاكوان وفي قلبه محبة صافية وخلاص العالم . فهو محور العالم ومحور التاريخ ، لا نقطة في مسافات ارضية ؛ هو الحدث الوحيد الذي به وبالاتصال به تفهم الحوادث الأخرى : هو قمّة الروح ؛ هو الجلجلة : هو الذبيح الذي اظهر من التواضع حتى الموت ما يبهر العقول ويجعلها مدى الأجيال في تأمل أمين وارادة التمثل به لا تشوبها شائبة . ولقد ركّز صليبه هناك ، ذلك الصليب الذي عليه دارت

المعركة الكونية بين روحين وعقليتين وارادتين، فكان بالموت انتصار الروح وبالموت انتصار الله. وكان الخلاص.

. . .

هذا شيء من كثير مما يتعلّق بالبوذية.

موقف الكنيسة الكاثوليكية

فالكنيسة الكاثوليكية تذكر هاتين الديانتين وتحترم ما فيهما من حقيقة وقدسيّة وتردد ان كل حقيقة، اينما وُجدت، انعكاس الحقيقة المطلقة الازلية، حقيقة هي المسيح الاله بالذات: كلمة الآب والاقنوم الثاني من الثالوث الاقدس. ذلك الاقنوم الذي تجسّد محبة بالبشر ومكث بينهم واعطاهم الحياة التي كانوا خسروها بالخطيئة. فعلى ابناء الكنيسة حيث وجدوا ان يتكاتفوا للخير مع اهل الخير خدمة لخير البشرية المتألمة والتي تريد ان تفترسها إلحادية عمياء. ففي تلك الديانات مبادئ روحية واخلاقية، ثقافية واجتماعية اذا تلاقت مع ما يحويه الدين المسيحي من قيم عالية ومبادئ بنّاءة كانت حاجزاً امام الالحاد وسنداً للانسان.

— ٤ —

نصّ القسم الثاني من « الوثيقة » : « المسلمون »

« تقدر الكنيسة ايضاً المسلمين الذين يعبدون الاله الواحد الحي القيوم الضابط الكل. خالق السماء والأرض، الذي كلم البشر والذي لأوامره الصمدانية تجب الطاعة التامة كما اطاعها ابراهيم. ذلك الذي بإيمانه يتصل الايمان الاسلامي. فان المسلمين يكرمون المسيح كنبي وان لم يعترفوا به كاله ويجلون امه مريم البتول. ويطلبون مرات شفاعتها بتقوى. ينتظرون يوم الدينونة عندما يجازي الله الذين يقومون من الموت. وبعد ذلك فانهم يكرمون الله بالصلاة والزكاة والصوم ويجتهدون وراء حياة اخلاقية فردية وعائلية واجتماعية طاعة لله.

واذا ما قامت في ما مضى من التاريخ بين مسيحيين ومسلمين تفرقات عديدة وعداوات فان هذا المجمع المقدس يحض الجميع على نسيان الماضي وعلى الاجتهاد الصادق للتفاهم المتبادل وعلى ان يسهروا في خدمة الكل على العدالة الاجتماعية والمبادئ الاخلاقية الصحيحة وبخاصة السلام والحرية وان يسيروا بها صعداً ».

حفظ التاريخ ذكر المناوشات العديدة والخلافات الكثيرة التي قامت على ممرّ الايام بين المسيحيين والمسلمين. ولقد آلت كلّها الى تصلّب الموقف عند الفريقين: الى الخوف المتبادل والى اللامبالاة العقائدية في خير ما في الديانتين فتحجّرت القلوب الا عند العدد اليسير وكأن المبادئ الروحية التي تشترك فيها

الاثنتان لا قرابة بينهما ولا حير من التكاتف في اقرارها والاستناد اليها في محاربة الافكار الهدّامة الى ان قام منذ سنين قليلة عدد من الرؤساء الروحيين بينهم البابا بيوس الثاني عشر وغيره ينادون بضرورة العمل الموحّد في سبيل دحض خطر المادية الطاغية . وها هو المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني في « وثيقته » المأثورة يدعو الى نبذ الحقد ونسيان الماضي والعودة الى التفكير والتأمل على المسيحيين والمسلمين يعملون في المستقبل القريب والبعيد على تقييم المبادئ الروحية الموجودة عندهم فتكون سبب تكاتف وتفاهم وعمل جدّي .

ولا غروَ فالمجمع يستخلص من العقيدة الإسلامية عناصر طيّبة فيها قوّة روحية صادقة على الكلّ ان يفهموها ويأتمروا بما تسنّه لهم من تعالي فوق الماديات ومن سير في طريق خلاص الانسان من ربقة المادة وعبوديتها . وفي سرد هذه العناصر عبرة لمن اعتبر .

. . .

تقول الوثيقة أوّل ما تقوله ان المسلمين يعبدون الإله الواحد القيّوم الضابط الكلّ خالق السماء والارض. فهو اذاً إله شخصيّ لا تضيع شخصيته وراء فكرة مجرّدة او سلطة غاشمة او استبداد تعسّفي وانما ينظّم الكون ولا يدعه في فوضى ، يوجه الانسان نحو غايته السامية ؛ يسانده في اعماله الخيّرة وبدونه لا تستطيع الخليقة أن تأتي بحركة اذ يتسلّط على الحرية ويوجهها ولا تعبد فيه الاّ الإله السرمدي المنزّه الذي لا اشراك فيه والذي صفاته لا تُحصى . فاذا ما تكلّم امر وامره مطاع ، انما يرأف بالانسان في عظمته وحقارته .

فالانسان يسير في هذه الحياة وقد اثقلت كاهلَه حتميّة الايام ويتوق في اختيار حريته الإسلام لله ويتعلّق به بايمان على شبه ايمان ابراهيم الخليل الذي آمن وتبرّر بالايمان . وبهذا نرى الصلة الوثيقة التي تربط المسلم ، اليوم كما والبارحة ، بابراهيم وبالله .

ايمان المسلم يتغذّى من كلام كتابه الديني ، القرآن ؛ فيجد فيه ذكر الله والأسس الدينيّة الأصيلة ومن بينها احترام اهل الكتاب ومحبة الفقير . فيتطوّر المؤمن في التأمل ويقف ملياً عند بعض الكلمات ــ الحقائق التي تهديه الى الله وتشعل في قلبه عواطف التواضع والاستسلام يعود بها الى خالقه ويعرض عليه ما يضايقه من مصائب وهو يعلم ان كلّ هذا من الله صدر ومن الله نبع وهو خير للخليقة .

. . .

في الإسلام عودة الى عيسى بن مريم والى مريم بالذات . يحترم الدين

الاسلامي عيسى، ويعتبره نبياً انما لا يقرّ بألوهيته وان تعدّدت المفاهيم التي تنبّه العقل الى سموّ عيسى فوق الانبياء اذ هو من روح الله على حدّ قول القرآن نفسه . انما تأتي السورة ١١٢ وتؤكد الوحدانية الالهية بمفهومها الفردي التي ترذل من الالوهة كائناً من كان لتضع الإله في انفراد كلّي وتنزيه مطلق غير ذلك الذي يفهمه الدين المسيحي اذ يتكلّم على الثالوث ويقرّ بوحدانية الطبيعة الالهية وتثليث الاقانيم .

والإسلام يكرّم عيسى النبي كما يكرّم سائر الانبياء انما يعطيه في القرآن من الميزات ما لم يحظّ بها نبي غيره : تلك الولادة العجيبة وتلك القداسة الفريدة وتلك الخوارق والمعجزات التي اجترحها .

لقد كوّن عيسى أمّة الكتاب يحترمها أهل القرآن اذ القرابة بين المسيحيين اتباع عيسى والمسلمين بيّنة واضحة ولذا فلا يجوز ، اذا ما هبّت في التاريخ عواصف وأعاصير فرّقت بينهم ، أن تدوم تلك التفرقات . وعلى الفريقين ان ينبذا كل حقد ويعودا الى حكمة وانصاف ويتكاتفا في التنقيش عن العدالة الاجتماعية والمبادئ الاخلاقية الصحيحة وبخاصة عن السلام والحرية . إذّاك تنمو في المبادئ التي تقرّب بين الفريقين أخوّة نحن بحاجة اليها اليوم : أخوّة مبادئ صحيحة تخدم كرامة الانسان وحريته فلا عبد ولا معبود ولا سيّد ومسود . هي مبادئ تدعو اليها المسيحية والاسلام . فلا غروَ اذا تصافح الاخوة وعاد اليهما بعد النفور الذي غذّاه التاريخ التفاهم والصفاء . وفي هذا التصادق خير للبشرية جمعاء وقوّة تصدّ تفشّي المبادئ المادية الإلحادية التي تؤول نهائياً الى استعباد لم يسبقه استعباد . فالدين لا يفرّق . واذا ما تحجّرت بعض المواقف التاريخية التي كان سببها خلافات سياسية وعقائدية مباشرة فعلى الفريقين أن يعودا اليوم الى الايمان الصحيح بالله يجعلها في سير موحّد نحو غاية يصعب رذلها — وهي الله بالذات — كي يتمّا سوية في مصافحة وتعارف خدمة البشرية فيبتعدا عمّا يفصل ويفرّق ويجتمعا في ما يقرّب إن دينياً وإن اجتماعياً .

. . .

وبعد ذكر عيسى بن مريم يجدر بنا ان نقف هنيهة عند مريم التي يجلّها القرآن وقد اعلى مقامها فأقرّ بأنه لم يمسها رجل في ولادة ابنها وانها ارفع من كل نساء الارض وانها ولدت عيسى ذلك النبي المتعالي في اعماله وحياته . ولكن القرآن لم يفرق بين مريم اخت هارون التي يتكلّم عليها في سورة مريم وتلك التي انجبت عيسى بصورة فائقة . فراح المسلمون يجلّونها ويكرّمونها ويطلبون شفاعتها بتقوى .

ولقد يعيش المسلم ايضاً بانتظار يوم الدينونة وهذا ما يجعله يتحسّب لملاقاة ربّه اذ تُجازى الأعمال الخيّرة خيراً وتعاقب الأعمال السيئة شرّاً . واوضح القرآن سبل الحياة التي على المسلم اتباعها ليصل الى الهدف مطمئن الضمير فيدعوه الى الصلاة والزكاة والصوم وفي هذه الامور الثلاثة خلاصه اذ يعود الى ربّه وينفتح على قريبه ويرجّه جسمه بالتضحية والصوم الى نسيان خيور الارض والتعالي فوق حطامها الى ما لا يزول فيظلّ اذاك في تفكير ووعي واجتهاد الى الأحسن .

. . .

هذه هي النقط الايجابية التي تستخلصها « الوثيقة » من الدين الاسلامي وترى فيها آمالاً في أن تعود كلّها بالخير على التضامن الروحاني بين الأديان في العالم ضد الالحادية المتصاعدة ولإقرار القيم الروحية في خدمة الانسان .

— ٥ —

نصّ القسم الثالث من « الوثيقة » : « اليهود »

« ان المجمع المقدس ، بينما يتقصى سر الكنيسة ، يتذكر الرباط الذي يربط شعب العهد الجديد بأبناء ابراهيم .

فكنيسة المسيح تقر بروح طيبة بأن ايمانها ودعوتها يتأصلان حسب إرادة الله العميقة الخلاصية في آباء العهد القديم ، في موسى والأنبياء وهي تعترف بان المسيحيين ، وهم ابناء ابراهيم بالايمان ، تشملهم دعوة الآباء نفسها وان خلاص الكنيسة يرمز اليه روحياً خروج الشعب المختار من ارض العبودية . ولذا فانه ليس باستطاعة الكنيسة ان تنسى أنها قبلت وحي العهد القديم من ذلك الشعب الذي تنازل الله واقام معه بعطف لا يصوّر العهد القديم وأنها تتغذى من أصول الزيتونة الخيرة التي عليها طعمت زيتونة الامم البرية . فالكنيسة تؤمن ان المسيح ، وهو سلامنا ، صالح بصليبه اليهود والأمم وجعلهم واحداً .

والكنيسة تتذكر دائماً كلام بولس الرسول عن اليهود اقربائه الذين « لهم التبني والمجد والعهود والاشتراع والعبادة والمواعيد ورؤساء الآباء ومنهم المسيح بحسب الجسد » (رومية ٩ / ٤ – ٥) ابن مريم البتول .

انها تتذكر ايضاً ان من الشعب اليهودي ولد الرسل أسس الكنيسة وأعمدتها وغيرهم تلاميذ كثيرون بشروا العالم بأنجيل المسيح .

ومع ان اكثرية اليهود لم يقبلوا بالانجيل فان الله — حسب شهادة الرسول — لا يندم على عطاياه وعلى دعوتهم وهو يحبهم من أجل الآباء .

والكنيسة تنتظر مع الأنبياء ورسول الامم الى ذلك اليوم الذي يعرفه الله وحده فيه الشعوب كلها تبتهل بصوت واحد الى الله « وتعبده بكتف واحدة » (صفنيا ٣ /٩) .

ولما كان التراث الروحي المشترك بين المسيحيين واليهود عظيماً فان هذا المجمع المقدس يريد ان يوصي ويساعد التعارف والاحترام المتبادل بينهما واللذان يتمان بالدروس الكتابية واللاهوتية وبالمحادثات الأخوية .

وبينما المجمع يرذل بقوة الاهانات المصوبة للناس اينما كانوا ، فانه يتذكر هذا التراث ويرثي ويرذل الحقد والاضطهادات ضد اليهود إن كانت في ما مضى او في اوقاتنا الحاضرة .

ولذا فعلى الجميع ان لا يعلموا شيئاً ، لا في التعليم ولا في الوعظ ، يكون في قلوب المؤمنين حقداً على اليهود او ازدراء بهم وان لا يكون الشعب اليهودي تلك الامة المرذولة او الملعونة او قاتلة

الإله . فالذي تم يوم تألم المسيح لا يجوز ان ينعت به الشعب المعاصر للمسيح ولا يجوز أن ننعت به الشعب الذي يعيش اليوم . فالكنيسة علمت وتعلم ان المسيح تألم ومات بملء ارادته المحبة لخلاص البشرية كلها . فعلى الواعظين اذاً ان يبشروا بصليب المسيح كرمز محبة الله الشاملة . وينبوع كل النعم » .

. . .

تتكلم الوثيقة بروح دينية صافية على علاقات المسيحيين باليهود وكأنها فتشت عن المفردات التي تدل اكثر ما تدل على قرابة روحية وصلات عميقة تتأصل في الايمان وفي تلك الرموز التي عاش منها الشعب اليهودي السنين الطويلة دون ان يُعطيها حقيقة واضحة ثابتة والتي لا تزال تعيش منها الكنيسة اليوم وقد اعطتها قيمة ومعنى . وانها لتلحّ في التأكيد ان تلك القرابة هي رباط وثيق يربط شعب العهد الجديد بابناء ابراهيم وان ايمان ودعوة الكنيسة يتأصلان حسب إرادة الله العميقة الخلاصية في آباء العهد القديم في موسى والانبياء . ولذا فان الكنيسة اذا ما ارادت فهم نفسها اضطرّت للعودة الى اصلها والى تلك الجذور التي تربطها بالشعب الذي مهد لمجيئها السبيل مع ما في كلام المسيح الاله واعماله التي اودعها اياها من روح جديدة وآفاق واسعة وآمال روحية حسب قول القديس ايريناوس : المسيح جدد كل شيء بمجيئه .

فالكنيسة والشعب اليهودي يشتركان بالعهد القديم ولا أساس لكل محاولة يراد من ورائها اخراج اسرائيل من الكتاب المقدّس . اذ ما نراه في الشعوب المعاصرة له من مؤسسات وآراء ومفاهيم تشبه ما نجده في اسرائيل ليذبل أمام الروح التي تحيي كل ذلك في الكتاب المقدّس دونما ريب . فليست الكلمات او تكاثر المفردات المتشابهة التي تجعلنا في حيرة فهذا لا يحمل العقل على الاضطراب . انما كل ما نجده من روحانية عالية في كلمات وآراء ومفاهيم اقتبسها الانبياء شكلاً للتعبير عن الوحي لتصير وحاجة من نور علوي صافٍ . اللهم اذا كان العهد القديم دليلاً الى العهد الجديد بالمسيح . فانه اذا توقف عند نفسه دون الاقتناع بضرورة التدليل ليظلّ مجموعة قوانين وشرائع متحجرة أمام الصليب . فهنالك دعوة شخصية تكوّن الصلة العميقة نشتمها في العهد القديم وتتوضح امامنا في العهد الجديد كصلة بنوّة مع الله في المسيح يسوع . فاسرائيل والكنيسة يشتركان كشعبين بالبنوّة تلك . ولكن ما اجمل ذلك التعاقب بينهما الذي يعبّر عنه بولس الرسول في رسالته إلى أهل رومة إذ يفسر لنا سرّ هذا التبدّل الى ان يجمعنا في محبة الحية لا نهاية لها .

ولقد نفهم ذلك لا بأن ننفي عن كل ما صدر في اسرائيل حقيقته ووضعيته انما لم تكن تلك الحقيقة الآ في المسيح العتيد . وعندما اتى المسيح وسار نحوه

اولئك المخلصون الذين ارادوه الهاً ومعبوداً ففيهم تكملت تلك الحقيقة الموجودة منذ البدء والتي تدلّ على وجود المسيح ووجود الكنيسة نفسها فيها. ففي كل زمان ومكان. كما يعلم القديس توما الاكويني[١] : كان للعهد الجديد من هم له. أوّليس الايمان بالمسيح ، لا الايمان بالله فقط ؛ الذي خلص ابراهيم. فالمسيح اذ هو البداية والياء المطلقة لكل شيء فكأني به حاضر في طيات التاريخ يوجه وينظم وبهذا فهو ايضاً الألف والاساس لكل شيء. فيه يتّحد اليهود والوثنيّون ليخطوا وثيقة ولادة الكنيسة اذ من الاثنين صنع شعباً واحدًا : من الاثنين جبل انساناً جديدًا واحدًا ؛ من الاثنين كوّن جسدًا واحدًا وجمع الاثنين في روح واحد »[٢].

ونسمع بولس يردد ايضاً : « العلّ الله رفض شعبه. حاشى ...واماً من جهة الانتخاب فهم أحباء من اجل الآباء لأن مواهب الله ودعوته هي بلا ندامة »[٣].

وعلى هذا المنوال فخروج الشعب اليهودي من ارض العبودية يرمز الى خلاص الكنيسة من حيل العالم الذي يحاول قتلها فتظل أمينة وقد قوّتها كلمة الله التي استلمتها منه دليلاً على مساعدة الهية تساندها في سيرها إلى هدف يجعلها مكمّلة رسالة واحدة جذورها تغور في ارض الله الى ما هنالك من ايام ودهور. فمن مريم البتول ولد المسيح الاله وقد اعطته نفسانية بشرية شبيهة بنفسانيتنا وأحاطته بعناية جعلت من يسوع ابن بلده ووطنه يحمل معه وفيه نور اهله واقربائه ولكنه يعطي من فيض حكمته العلوية سرّ البقاء لكل ما يصنعه.

وهناك الرسل الذين انحدروا من سلالة يهودية وهم اعمدة الكنيسة كما يسميهم بولس. غمسوا الرسالة المسيحية في دمهم فاستشهدوا للمسيح وصار ذلك الدم بذورًا لولادة مسيحيين آخرين. وغيرهم كثيرون ممن ساروا في اوائل الكنيسة الى ملاقاة ذلك النبي الذي أتى ليتمّم في نفسه كل النبوات ويعبّر بذلك عن رسالته الالهية.

...

واذا ما عيّرنا اليهود بموت المسيح فلا نعيرهم ، تقول الوثيقة ، كشعب سخط عليه الله من جرّاء ذلك وكأن التاريخ يحمله وصمة الصلب. فهناك زمرة من الاشقياء طاعوا أرباب الحكم في تلك الايام وارتكبوا الجريمة وما هم

---

١) Iª IIae, q. 98, a. 1. ad 4
٢) افسس ٢ /١٤–١٨ .
٣) رومية ١١ / ٢٨ .

في ذلك الا ممثلو الانسانية الخاطئة جمعاء . فآدم منذ ان ارتكب الخطيئة الأصلية التي جنحت بالطبيعة البشرية الى طرق ملتوية هو صَلَبَ المسيح وابناؤه كلهم الذين يتوارثون الخطيئة الأصلية ويرتكبون الخطايا يمثلون على الجلجلة بزمرة الاشقياء أولئك . فالمسيح اذا قتله اليهود هو هو بتقدمة باطنية عفوية ارادية وبحب غير متناه لخلاص البشر قدم نفسه عن الانسان الخاطئ ليمحو الخطيئة ويساعد البشرية بذلك الدم المسفوك — عنوان النعمة والخلاص — الى العودة الى الطريق السويّ . فـلا الشعب اليهوذي : معاصر المسيـح — تقول الوثيقة — ولا الشعب اليهودي الذي يعيش اليوم قتل المسيح كشعب . وزمرة الاشقياء الذين ارتكبوا الجريمة كانوا من ذلك الشعب الذي اختار ابن الله ان يولد من صُلبه .

لقد ردّد هذا مراراً في جلسات المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني كل الآباء الذين تطرقوا لهذه الوثيقة والحوا بان لا توصف تدخلاتهم تلك الا روحياً ودينياً لا سياسياً . فان العالم اليوم يتطوّر بسرعة عظيمة . ومن الخير ان يعود الانسان الى فحص ضمير وتبكيت نفس على امور حجرها التاريخ . أفلا نستطيع ان نجدّد نظرنا المعتاد الى هذا او ذاك . اوليس من الحرم بدرجة ان لا يعود باستطاعة الانسان ان يصلح خطأ ارتكبه في ما مضى .

...

ولهذا فالمجمع المسكوني يرذل كلّ اضطهاد وكلّ هزء بقـوم وبشعب من شعوب الأرض ويطلب الى ابناء الكنيسة الكاثوليكية ان يحترموا الشعب اليهودي وأن لا يضمروا الحقد والازدراء . فعليهم ان يخلقوا جوّ التعارف والاحترام المتبادلين وذلك على صعيد الدروس الكتابية واللاهوتية والمحادثات الأخوية . وبذلك تقوم تلك المحبة التي بدونها لن تستطيع البشرية ان تعيش بصفاء وسلام .

...

وهذه الدعوة الى المحبة بالبراهين التي سبقت ليست جديدة في الكنيسة . انما على الكنيسة نفسها ايضاً في ايامنا ان تتجدد فتغير لهجـة صلواتها ومجادلاتها ومكالماتها مع الناس — وهذا ما صنعه يوحنا الثالث والعشرون وبولس السادس المالك سعيداً — وهي القيّمة على ما في البشرية من قيم انسانية روحية تدافع عنها وتُعلن للملأ ارادتها الجبارة في التأثير على سير العالم نحو غد افضل أخوي وروحاني .

— ٥ —

نصّ خاتمة « الوثيقة » : « الأخوّة الشاملة بعيدة عن أية تفرقة عنصرية »

« لا نستطيع ان ندعو الله أب الجميع اذا رفضنا أن نعامل كاخوة بعض الناس الذين خلقهم الرب على صورته . فصلة الانسان بالله الآب وصلته بالانسان أخيه ترتبطان بقوة : فمن لا يحب لا يعرف الله .

فلا اساس إذاً لأية نظرية أو موقف يفرق بين رجل وآخر ، بين شعب وآخر في ما يتعلق بالكرامة الانسانية والحقوق الناجمة عنها .

فليبتعد الجميع وبخاصة المسيحيون عن كل تفرقة بين البشر وعن كل جور بسبب العرق او اللون أو الطبقة الاجتماعية او الدين . والمجمع ، وهو اذ يقتفي أثر الرسولين القديسين بطرس وبولس ، يدعو بالحاح المسيحيين كي يكون « تصرفهم بين الأمم حميداً » (١ بطرس ٢ /١٢) قدر المستطاع وكي يحافظوا على السلام مع الجميع فيكونوا حقاً ابناء الآب الذي في السماء » .

. . .

بعد ان تكون الوثيقة وصلت بنا الى هذه النقطة من البحث والاشارة الى ما يجب تتميمه بغية التقارب بين الشعوب تقف هنـــا فتوسع الآفاق وتتوجه الى الانسان كانسان وتطلب اليه ان يحترم أخاه الانسان وان لا يرضى بتفرقة تتأتى عن العرق او العنصر او اللون . وما ذلك الاّ لأن البشر كلهم من صنع الله اب الجميع ولأن في كل انسان صورة الله ومثاله . ولكل واحد حقوق وواجبات لو استوعبها الكل لصارت اساساً لبناء عالم يعيش في محبة صادقة وأخوّة . ولكن « من لا يُحبّ لا يعرف الله . »

نرى كيف تضع الوثيقة صلة وطيدة بين المحبة والمعرفة . فلا يكفي ان تكون محبتنا كلامية عابرة . ونحن اذا ما أردنا ان نعرف الله علينا ان نحبّ مع كل ما في هذه الكلمة من قوة وواقعية . فلا يجوز لنا ان نكذب فنقول : إننا نحب الله ولا نُعطي قلبنا للانسان اخينا . هذه اقوال يوحنا الرسول في رسالته وهذا التعليم تظلّ عليه الكنيسة،ما دام فيها حيوية لتردد ان الله محبة ومن اراد ان يتبعه عليه ان يحبّ قريبه وقد اعلن بولس الرسول ان محبة القريب هي علامة محبة الله . والمحبة شاملة لاتستثني احداً وفيها ما قاله ايضاً بولس في ذلك النشيد الرائع في رسالته الى اهل كورنتس الاولى الفصل الثالث عشر : « المحبة لا تحسد ولا تتباهى ولا تنتفخ . . . ولا تفرح بالظلم بل تفرح بالحقّ ».

ان الحياة الدنيا تدلل على ما في الانسان من حسد وحقد ، من انانية وكبرياء، إن على الصعيد الفردي او الجماعي . فإلّم يعد الى ضميره والى ربه فكيف يستطيع اذ ّاك ان يتعالى فوق التفرقة العنصرية التي تهدم كياناً روحياً وتمحو من الانجيل ومن الضمير اننا ابناء الآب الذي في السماوات .

ولذا فان التفرقة العنصرية تلك لتنتج الجور والظلم والاستهتار بكرامة

الانسان وحقوقه وتترك العالم على فوهة نار تندلع كلما تجاوز الانسان حدوده بهضم حقوق تعود لأخيه الانسان . والكنيسة امّ السلام والمحافظة على السلام تدق دوماً ناقوس الخطر لا لأنها تخاف على نفسها ولكن لأنها تحمي الانسان من اسباب الفناء وتريد له سلاماً وطمأنينة كي يعيش حياته الأرضية في مأمن من كل حرب وفي عودة مستمرة الى الخالق .

ولقد كلّم بولس السادس المالك سعيداً رؤساء الكنيسة الروحيين وبواسطتهم العالم كله في اواخر نيسان الماضي في رسالة عامة وجهها اليهم بمناسبة حلول شهر ايار فقال : « ان تفشي الاضطرابات وعدم الاستقرار التي تعانيها أمم عديدة يشكلان الباعث الثاني لرسالتنا هذه . ان خبر السلام الذي لا يعلوه خبر هو اليوم في خطر شديد . فهناك مشاحنات متزايدة بين الشعوب في مناطق مختلفة من المعمور تتفاقم بصورة مخيفة وان امثولة الحربين الاوليين اللتين أسالتا الدماء الغزيرة في العالم لم يتعظ بهما البشر . فتراهم يتسلحون من جديد — وفي هذا الخطر العظيم — ولا يأبهون للوسائل التي تزيل من النفوس روح التوتر والتفرقة ، ما يجعل بعض الشعوب تعيش تحت كابوس ألم لا يوصف ينجم عن اضطرابات وحروب عصابات وخصومات مسلحة تنمو يوماً أثر يوم وتتأزم منذرة باندلاع حرب رهيبة .

« وحيال هذه الاخطار المروعة التي تهدد العيلة البشرية فاننا ، ونحن واعون ، واجبنا كراع اعلى ، نعلن قلقنا وخوفنا من ان تنقلب هذه الخصومات حرباً دموية .

« ولهذا ، فاننا نتوسل الى الحكام وولاة الأمور الاّ يرفضوا توق البشرية جمعاء الى السلام وان ينتشوا عن الوسائل التي تؤمن سلاماً هو الآن في تدهور . فلا يحجموا عن توطيد الصلات والمفاوضات بين البشر الى اي طبقة او رتبة انتموا ، وفي اي زمن ووقت كانت ، وان يمنعوا استعمال السلاح الخطر وما ينتج عنه من مصائب وخيمة ، زمنية وروحية وخلقية ويعتمدوا الطرق التي هي طرق الحق ويفقهوا كل توق صادق الى العدل والسلام وليؤيدوه حتى يجعلوه ذا فعالية وليثنوا بهدف الارادة الحسنة الخيّر حتى يستتبّ العدل والحق .

« آه ! فاننا تجاه وضع مؤسف كهذا ، نلمس بحزن شديد ان احترام طابع الحياة البشرية المقدس والذي لا يجوز انتهاكه ، مفقود غالباً ، وان هناك اساليب معتمدة تعاكس الروح الخلقية وتقاليد الشعوب المتمدنة .

« فلا مندوحة لنا اذاً من ان نرفع الصوت عالياً لحماية الكرامة الانسانية والمدنية المسيحية وشجب طرق الارهاب والعنف وحرب العصابات وحجز الرهائن والانتقامات من شعوب عزلاء . فهذه الجرائم كلها تؤخر تطوير معنى

العدالة والانسانية وتوغر صدور المتحاربين غيظاً وتستطيع ان تسدّ الطريق أمام النيات الخيّرة المتبادلة وتجعل المفاوضات صعبة بين الدول ، تلك المفاوضات التي اذا ما تمت بروح صادق مستقيم قادت الى تفاهم ايجابي .

« ومن الجلي الواضح لديكم : ايها الأخوة الاجلاء : ان هذه المشاغل تقلقنا في الصميم : لا للآرب خاصة : بل لان سعانا الوحيد هو حماية من تحل بهم هذه الضربات والعمل على الازدهار الحقيقي لجميع الشعوب » .

...

وعلى هذا الأمل وفي هذا الجو من الاستقامة الباطنية نستطيع ان ندعو الله اب الجميع فلا يعود بمقدور انسان ان يناجي الله اباه الّم يدعُ الانسان اخاه ويعامله هكذا .

هذا ما يعلمه آباء الكنيسة على مرّ الاجيال وهذا ما اراد اجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني ان يعيده الى الاذهان بسلطته الروحية المطلقة والمستمدّة من مؤسس الكنيسة الالهي السيد المسيح الكلمة المتجسد .